Horizons of Islamic Civilization, **Institute for Humanities and Cultural Studies (IHCS)**
Biannual Journal, Vol. 23, No. 1, Spring and Summer 2020, 319-344
DOI: 10.30465/AFG.2020.5118

A Quranic Study of Affection and Hatred in Interreligious Relations

Sayed Abulhassan Navvab*
Haidar Hobballah, Ahmad Reza Meftah*****

Abstract

Some schools of thought and jurisprudence in the Islamic world — especially Salafism — have embraced the principle of absence of friendship across religions and believe that Islamic law is based on this principle. According to them, in interacting with the followers of other religions, the principle is to hate them and not to like them. From the point of view of these intellectual and jurisprudential traditions, this principle is one of the manifestations of strictness towards the followers of other religions and the lack of friendly relations with them. In the present study, an attempt has been made to examine this issue from a Quranic perspective. It is concluded that what is found in the texts of the Quran is an unfriendly and hateful interaction with "the enemies of the Muslim Ummah and human beings" and not with all the people who disagree with the Muslims on their thought, religion and belief. In addition, what can be seen in the Quranic texts is the emphasis on preserving identity by distinguishing oneself from followers of other religions, not hatred towards them.

Keywords: Hatred, Loyalty, Friendship, Affection, Identity, Strictness.

---

* Associate Professor, Faculty of Jurisprudence and Law, University of Religions and Denominations, abulhassan.navvab@gmail.com

** Ph.D., University of Religions and Denominations, haiderhhh@hotmail.com

*** Associate Professor, Faculty of Comparative Religions, University of Religions and Denominations, meftah555@gmail.com,

Date received: 06/04/2020, Date of acceptance: 22/06/2020

آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية
مجلة علميّة نصف سنويّة (مقالة علميّة محكّمة)، السنة ٢٣، العدد ١، ربيع و صيف ١٤٤٢ - ١٤٤١ هـ.ق، ٣١٩-٣٤٤

ثنائيّة المودّة والكراهية في العلاقات بين الأديان

دراسة قرآنيّة

السيد أبو الحسن نوّاب*

حيدر حب الله، أحمد رضا مفتاح*****

الملخص

تذهب بعض التيارات الفكريّة والفقهيّة في العالم الإسلامي خاصّة السلفيّة إلى الإيمان بمبدأ الكراهية بين الأديان، بوصفه من وجهة نظرهم الأساس الذي تقوم عليه الشريعة الإسلاميّة، مدّعين أنّ الأصل في التعامل مع الآخر الديني هو إضمار الكراهية له بوصفها مظهراً من مظاهر الغلظة والشدّة ونفي الموالاة. وقد حاول هذا البحث أن يدرس هذه القضيّة من زاوية قرآنيّة، ليتوصّل إلى أنّ فكرة الكراهية لا وجود لها في النصّ القرآني إلا تجاه المعتدين على الأمّة المسلمة والإنسان، لا مطلق المختلف معهم في الرأي والعقيدة والدين والمذهب، وأنّ النصّ القرآني يركّز على مبدأ المفاصلة لحفظ الهويّة، وليس على مبدأ الكراهية.

الكلمات الرئيسة: الكراهية، الولاء، البراء، المودّة، الهويّة، الغلظة.

---

* أستاذ مشارك بقسم الأديان الفقهية، جامعة الأديان والمذاهب، (الكاتب المسئول)
abulhassan.navvab@gmail.com

** دكتوراه، جامعة الأديان والمذاهب، haiderhhh@hotmail.com

*** استاذ مشارك بقسم الأديان الإبراهيميّة، جامعة الأديان والمذاهب، أكتب اسم الجامعة
meftah555@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٩/٠١/١٨، تاريخ القبول: ١٣٩٩/٠٤/٠٢

١. المقدّمة

يعني مبدأ الكراهية والشدّة في العلاقات بين الأديان من منظورٍ إسلامي، أنّ القاعدة في التعامل مع غير المسلم ـ إلا ما خرج بالدليل ـ هي الشدّة والحدّة والغلظة وعدم المودّة أو لين القلوب، فالأصل في التعامل مع مطلق غير المسلم (الفرد أو الجماعة) ـ سياسياً واجتماعيّاً و.. ـ هو مواجهته بالشدّة، والسلوك الفظّ، والعبوس، وحدّة المواقف، وقطع الصلة، وعنف اللغة وأدبيّات التعبير، وغير ذلك، ومن ثمّ فلا معنى للحديث عن تأليف قلوب المسلمين تجاه غيرهم أو العكس، وبهذا تصبح قاعدة تأليف القلوب وتقاربها منعدمة من أساسها وجذورها.

ويشتهر هذا الاتجاه اليوم بنسبته للمذهب السلفي الذي انتصر لهذه الفكرة وطبّقها ومارسها ودعا إليها، لكنّ العديد من الباحثين يعتبر أنّ هذه الفكرة ليست ذات هويّة سلفيّة بالمعنى المذهبي للكلمة، بل هي ذات هويّة دينيّة عامّة تؤمن بها مختلف الطوائف والمذاهب الإسلاميّة، خاصّة في أوساط أهل السنّة.

وترجع هذه الفكرة بالتحليل والتأمّل ـ بل وكما يظهر من الذين بحثوها ـ إلى فكرة أكثر عمقاً، وهي فكرة الولاء والبراء أو التولّي والتبرّي، إذ ينتصر الكثير من فقهاء المسلمين لهذه الفكرة خاصّة السلفيّة اليوم، ويعتبرون أنّ الدين له وجهان لا ينفصلان عن بعضهما، وهما وجهان لعملة واحدة: الولاء والبراء، وأنّ الولاء من دون البراء لا معنى له، والعكس صحيح.

ولو أردنا النظر في المستند الذي تُبنى عليه فكرة القطيعة والشدّة والبراءة في العلاقات الأديانية من منظور إسلامي، سنجد مستندات من الكتاب والسنّة وأمثالهما، وسوف نعرض أهمّ الأدلّة بإيجاز، ثم نتوقّف عندها ونتأمّل.

ومن أبرز الكتب التي صنّفت مؤخّراً في هذا الصدد تمثل وجهة النظر السلفيّة واشتهرت اشتهاراً كبيراً كتاب *الولاء والبراء في الإسلام*، لمحمّد بن سعيد القحطاني، إلى جانب الأعمال المتفرّقة الكثيرة التي بُثت حول هذا الموضوع في كتب ابن تيمية وابن قيم الجوزيّة وغيرهم.

سنعتمد هنا على المنهج الوصفي – التحليلي القائم على القراءة التفسيريّة للنصوص اعتماداً على اللغة والسياق التاريخي، وسنحاول الجواب عن الأسئلة الآتية:

أ) ما هو الأصل في العلاقة مع الآخر الديني من منظار القرآن الكريم؟

ب) هل يميّز الإسلام بين الآخر الديني المعتدي وغيره في طريقة التفاعل العاطفي والسلوكي معه أو لا؟

ج) إذا كان الإسلام يميّز، فكيف؟ وما هو المعيار؟

٢. القسم التحليلي

أهمّ الأدلّة التي يستند إليها القائلون بأصل البراءة ونفي المودّة هنا هو النصوص القرآنية الدالّة مباشرة على هذا الموضوع، وأبرزها يمكن جعله ضمن مجموعات، هي:

١.٢ نصوص البراءة والتبرّي، عرض الاستدلال ووقفات تأمّليّة

وهذه النصوص هي:

١. قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة/١١٣ ـ ١١٤).

٢. قوله سبحانه: ﴿..أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام/١٩؛ وانظر: الأنعام/٧٨، وهود/٥٤).

٣. قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة/٣).

٤. قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس/٤١).

٥. قوله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (هود/٣٥).

٦. قوله عزّ من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (الزخرف/٢٦).

٧. قوله سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة/٤).

فهذه المجموعة من النصوص تؤكّد على مفهومين:

المفهوم الأوّل: التبرّي من أعمال غير المسلمين.

المفهوم الثاني: التبرّي من غير المسلمين أنفسهم.

وتستنتج هذه الآيات من هذين المفهومين نتائج من نوع عدم الاستغفار لهم كما يظهر من الآية الأولى بربطها بين مفهوم الاستغفار ومفهوم التبرّي، ومن نوع بدو العداوة والبغضاء بين المسلمين وغيرهم حتى يؤمن الطرف الآخر بالله وحده، فتربط الآية الأخيرة بين البراءة وظهور المعاداة والبغضاء ناهيةً هذه المسيرة بالإيمان فقط، وهذا يؤكّد أنّ الأصل في العلاقة مع غير المسلم هو العداوة والبغضاء والبراءة والكفر به وعدم الاستغفار له، وهذه بأجمعها لها دلالات واضحة في تأسيس نمط من العلاقة بين المسلم وغير المسلم، رابطة الموقف كلّه بعنوان الكفر وخاصية الشرك والكفر بالله سبحانه لا غير، فلا فرق فيها بين معاهد ومحارب وغير ذلك (انظر: القحطاني، ١٤١٣ق: ١٤٥ ـ ١٥٠).

ولكي ندرس هذه النصوص القرآنية، يلزمنا التوقّف قليلاً معها بعض الوقفات، وهي:

١.١.٢ في التحليل اللغوي لمفهوم البراءة

البراءة تعني في اللغة الانقطاع وخلوص الشيء من الشيء ومفارقته والتباعد عنه من الأوّل أو بعد الاتصاف به. ومنه البراءة من المرض، أي المعافاة والسلامة وابتعاد المرض عنه وتخلّصه منه. ومنه البراءة من العيب والنقص، بمعنى السلامة منهما. وكذلك عندما يقولون: البراءة من الدَّين والضمان، فهو يعني أنّ الذمّة والعهدة خالية منهما. ومن هذا المعنى الاستبراء من البول والمنيّ والحمل وغير ذلك مما تعرّض له الفقهاء، فإنّه بمعنى الخلوّ منها والخلاص والمفارقة. ومن هنا يأتي معنى طلاق المباراة، أي يفارق كلّ طرف الآخر، ولهذا اشترطوا فيه المفارقة من

الطرفين وترك كلّ واحد منهما الآخر وكراهته له، ويقال: تبرأ الرجل من الرجل، أي تباعد منه وانقطعت الصلة بينهما، ولم يعترف له بحقّ عليه (أنظر: الراغب الإصفهاني، ١٤٠٤ق: ١٢١؛ والأزهري، ٢٠٠١م: ٢٦٩/١٥، ٢٧١؛ وابن فارس، ١٩٩١م: ٢٣٦/١، ٢٤٦).

وبهذا نستنتج أنّ البراءة نوع من الفصل بين شيئين وحدوث اللااتصال بينهما سواء بعد اتصال أم من دونه، فعندما أقول لك: تبرأ من عمرو، فهذا يعني ضرورة أن يكون هناك فصل بينك وبينه، أمّا جهة هذا الفصل فلابد فيها من ملاحظة المناسبات والحيثيّات، فقد تقع بمعنى عدم التكلّم معه وترك محادثته وصلته مطلقاً، وقد تكون الجهة بمعنى إعلان أنّك لا صلة بينك وبينه، وقد تكون نوع من الفصل كالفصل بينك وبينه في الفكر أو الدين أو غير ذلك، بمعنى عدم الانتماء لفكره أو دينه، وهذا ما يلتقي مع ما أفاده الإمام الخامنئي (أنظر: الخامنئي، ١٣٩٦ش: ٩٩ ـ ١٠٠؛ و ١٣٩٦ش: ١٦٧ ـ ١٧٨).

أضف إلى هذا كلّه أنّ النصوص القرآنية التي مرّت معنا آنفاً بعضها يفيد التبرّي من العمل نفسه، مثل الآيات رقم: (٢ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦)، وهذه النصوص لا يُفترض إقحامها في موضوع بحثنا؛ لأنّ القطيعة بيننا وبين العمل الإجرامي أو الشركي أو الفاسد أو غير ذلك أقصى ما تعنيه ترك هذا العمل من قبلنا ورفضه ومواجهته عبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل القدر المتيقّن منه القطيعة والانفصال بيننا وبين هذا العمل، وهذا لا علاقة له بنسبتنا لصاحب هذا العمل في غير عمله هذا.

٢.١.٢ بين التبرّي وأشكال الإعلان والإبراز

اتضح في الوقفة الأولى عند تحليل المعنى اللغوي أنّ التبرّي يعني الانقطاع والفصل، لكنّ هذا المفهوم في نفسه وبصرف النظر عن القرائن الحافّة بالنصوص القرآنيّة هنا لا يعطي إعلان التبرّي على نحوٍ مطلق؛ إذ البراءة شيء وإظهار البراءة وإعلانها شيء آخر، فأنت تتبرّى من زيد وتقطع صلتك به وتتخلّص منه وتتباعد عنه، فيصدق البراءة، أو تفعل ذلك مع بغض له من حيث فعله المنكر فيحصل ذلك أي البراءة، لكن ليس من الضروري لصدق البراءة أن تعلن ذلك أمام الناس لزوماً، أو تعبّر عنه بقولٍ أو لسانٍ خاصّ أو بسلوك معين تجاهه كالغلظة والشدّة معه؛ لأنّ التولّي والتبرّي هما في الأصل من أفعال القلوب إذا فسّرناهما بالحبّ

والبغض، ولهذا لا يقول أحد بضرورة أن نعلن بغضنا ـ بناءً على تفسير البراءة بالبغض ـ كلّ يوم لنمرود وفرعون وهامان وقارون وغيرهم من القائمة الطويلة كلّ واحدٍ بالتفصيل وباسمه، فالأمّة لا تعيش البراءة من هؤلاء بمعنى الإبراز، بل تعيشها بمعنى البغض المستكنّ الكامن في النفس على ما فعلوا، أو فقل البغض الإجمالي مقابل البغض التفصيلي، أو البغض العنواني مقابل البغض الشخصي.

والنتيجة: إنّ مفهوم التبرّي لا يُعطي على أبعد تقدير غير الانقطاع، ولا يساوي مفهوم الغلظة والشدّة والعنف والإذلال وغير ذلك.

٣.١.٢ في قصّة إبراهيم وأبيه

إنّ الاستناد للآية الأولى هنا ولقصّة علاقة إبراهيم بأبيه واستغفاره له، تفرض علينا مراقبة القصّة في مواضعها في القرآن الكريم، ويمكننا طرح تصوّرين هنا في تفسير القصّة:

التصوّر الأوّل: أن نفكّك بين قضيّة الاستغفار وقضيّة البراءة بشكلٍ من الأشكال، ولنبدأ من الوعد الذي قدّمه إبراهيم لأبيه، حيث يخبرنا القرآن أنّه جاء عقب معرفته بكونه مشركاً، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (مريم/٤١ ـ ٤٧).

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ.. رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (الشعراء/٦٩ ـ ٨٧).

هذه الآيات تفيد أنّ إبراهيم وعده بالاستغفار رغم كونه يعلم أنّه مشرك وليس بمسلم، فيما الآية الأولى من الآيات هنا تفيد أنّه لما علم بأنّه عدوّ لله تبرأ منه، وأنّ الاستغفار كان

قبل ذلك، وهذا يؤكّد أنّ التبرّي الذي تحدّثت عنه الآية ليس التبرّي من المشرك بما هو مشرك، بل هو التبرّي من عدوّ الله، ويبدو جليّاً أنّ مرحلة العداوة لله تختلف عن مرحلة الشرك بالله فحسب، بما يعني أنّ آزر كان مشركاً لكنّه لما انكشف لإبراهيم عقب ذلك أنّه يعادي الله سبحانه ويصدّ عن سبيله ويحاربه وما شابه ذلك، تبرّأ منه، فكيف يمكننا أن نستند لهذه الآية الكريمة لإثبات وجوب البراءة ونفي المودّة مع مطلق المشرك فضلاً عن مطلق غير المسلم؟! هذا مع تأييد ذلك كلّه بأنّ إبراهيم وصف والدَه بالضالّ أثناء دعائه له وطلب المغفرة له، ولم يصفه بالعدوّ أو المغضوب عليه أو نحو ذلك.

بل الآية التي نحن بصددها هنا تدلّ عند ربطها بمجموعة آيات سورة مريم والشعراء أنّ القرآن لم يكن لديه أيّ تحفّظ على ما فعله إبراهيم، والمفروض أنّ نصوص سورة مريم تدلّ على أنّ إبراهيم قال لوالده بأنّه سلام عليك ووعده بأن يستغفر ربّه له، ولكي نجمع النصوص إلى بعضها نعرف أنّ الموقف خاصّ بالمشرك هنا؛ لأنّ الشرك هو الذنب العظيم الذي أعلن القرآن أنّ الله لا يغفره ما لم يعد صاحبه عنه قبل وفاته ونزول الموت به، ومن ثمّ فلا معنى لطلب المغفرة للمشرك من حيث هو مشرك ما دام الله لا يغفر له إن لم يتب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء/٤٨) ولهذا قالت الآية هنا بأنّه لم يكن للمؤمنين أن يطلبوا المغفرة للمشركين بعد أن علموا أنّ المشركين أصحاب الجحيم، أي أنّهم لن يدخلوا الجنّة يقيناً ما لم يُسلموا ويؤمنوا قبل الموت، بل قبل الموت الدعوة الصحيحة هي دعوة الله تعالى لهم بالهداية، فالنهي عن طلب المغفرة للمشركين ليس من الضروري أن يكون من باب البغض لهم أو الشدّة أو الغلظة، بل من باب عدم وجود معنى للطلب من الله أن يغفر لهم في حال أنّ الله يعلن بنفسه أنّه لا يغفر لهم، فيكون هذا الطلب غير مؤدّب معه سبحانه، ولهذا قال الطبري: «فلا ينبغي لهم أن يسألوا ربّهم أن يفعل ما قد علموا أنّه لا يفعله» (الطبري، ١٩٩٥م: ٥٦/١١).

وبهذا نعرف أنّنا أمام مفهومين:

- مفهوم الاستغفار
- ومفهوم التبرّي

والمفهوم الأوّل لا صلة له في نفسه بمبدأ الغلظة ونفي المودّة بالضرورة، بل إنّما ـ أو قد ـ ينطلق من خصوصيات عدم الأدب مع الله سبحانه ولا معقوليّة الدعاء هنا، ولهذا كان منطلق إبراهيم في الدعاء هو الوعد الذي وعد به أباه، فكأنّه لمقام حرمة الوعد دعا إبراهيم، وإلا فالأصل أن لا يدعو بعد أن علم بشركه.

أمّا المفهوم الثاني، فمن الواضح أنّ الآية بضمّها لنصوص سورة مريم والشعراء، تعلن أنّ البراءة جاءت عقب مقام العداوة لله، لا عقب الشرك المحض مع الله سبحانه. وتصوّرُ أنّ «تبيّن العداوة» معناه معرفة إبراهيم أنّ الشرك بالله هو معاداة في ذاته ولم يكن تبيّن له ذلك من قبل، غير قريب لسياق الآيات وحواريّته مع أبيه والإمكانات أيضاً، بل لو احتملنا ذلك يبقى احتمال ما نقول معقولاً جدّاً، فيتردّد الأمر في الآية الكريمة، ويبطل استدلال المستدلّ بها هنا.

التصوّر الثاني: أن نربط بين قضيّة الاستغفار وقضيّة البراءة، ونستخدم التصوير الأوّل بعينه لكن نقول: إنّ الآية تريد من النبيّ والمسلمين أن لا يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى، وتبرّر ذلك بأنّهم علموا أنّهم من أصحاب الجحيم، ثم تسرد قصّة إبراهيم، ولما نرجع لقصّة إبراهيم نجد أنّها تبرّر استغفاره لعدم كونه قد علم أنّه عدوّ لله رغم علمه بأنّه مشرك، فوعده بالاستغفار مع علمه بشركه وعدم علمه بعداوته، وهذا السياق يوجب تقييد دلالة مطلع الآية بجعل الاستغفار للمشرك محرّماً في خصوص حالة العلم بكونه عدوّاً لله، لا مطلق المشرك غير المعادي لله ورسوله، فيكون التبرّي والاستغفار معاً مقيّدين بالمعاداة، ومن ثمّ لا ينتج الاستدلال بهذه الآية شيئاً هنا في تأصيل قاعدة في العلاقة مع غير المسلم، بل لعلّها تنفع أيضاً في تقييد النصوص الدالّة على أنّ الله لا يغفر الشرك به بخصوص حال المعاندة والمعاداة والضديّة العمدية مع الله سبحانه (عدوّ لله).

وبصرف النظر عن مجمل ما تقدّم، ولو بنينا على أنّ آزر هو والد إبراهيم الحقيقيّ، فإنّ الآية لا تفيد من التبرّي الغلظةَ والشدّة والتعالي، وذلك أنّ القرآن يعتبر تجربة إبراهيم بمثابة قدوة لنا، فإذا كان التبرّي متصلاً بمطلق شرك والد إبراهيم، وفهمنا التبرّي على أنّه الغلظة والشدّة لزم أنّ سلوك إبراهيم مع والده هو سلوك غلظة وشدّة، مع أنّ القرآن الكريم نفسه

يأمر بسلوك سبيل المعروف مع الوالدين المشركين؛ حيث يقول: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان/١٤ ـ ١٥).

٤.١.٢ في التبرّي وظهور العداوة والبغضاء

نقف الآن مع الآية الأخيرة من سلسلة الآيات التي عرضناها، وهي من الآيات المهمّة في موضوع التبرّي؛ لننظر في سياقها المتصل أو المحتمل الاتصال، لنكتشف سلسلة مهمّة من الأمور، دون أن نقتطع الجمل أو نجرّدها عن ملابساتها.

فالنصّ القرآني من بداية سورة الممتحنة يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

من الواضح هنا أنّ القلق القرآني قائم على فكرة مودّة الكافرين، وتضع النصوص صورةً مشهديّة لهؤلاء الذين تتكلّم عنهم السورة هنا، وهم الكافرون الذين أخرجوا الرسول والمؤمنين، والذين يسعون لمعاداة المؤمنين وأذيّتهم مهما أمكنهم إلى ذلك سبيلاً، فهم أعداء الله والمؤمنين، فالنصّ ينبّه المؤمنين على خطأ الموادّة لهم ولو في السرّ، وعدم الوقوع في فخّ العلاقات العائلية والعشائريّة، وكأنّ بعض المسلمين كانوا على صلة سريّة ببعض أقربائهم من المشركين في مكّة، وثمّة موادّة بينهم، الأمر الذي يمثل خطراً كبيراً. ومن الواضح أنّ قلق السورة ليس من عدم بغض الكافرين، بل من ظاهرة التوادّ القائمة بين المسلمين والكافرين بما يمكنه أن يشكّل خطراً في تكوين علاقة بين بعض أفراد المسلمين وبعض أفراد الكافرين، وهم في موقع الحرب الأمر الذي ربما تكون له انعكاسات سلبيّة في ظلّ ثقافة عشائرية وقبليّة قد تقوّي نفسها أمام اللُحمة الانتمائيّة الدينيّة ـ حديثة الظهور ـ في ظرف من هذا القبيل.

والذي تشير إليه نصوص أسباب النزول عند السنّة والشيعة هنا أنّ السورة نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، إذ يروى أنّه أسلم وهاجر وترك عياله في مكّة، وأنّه أرسل عبر امرأة لأهل مكّة ـ وفي بعض النصوص أنّ ذلك قبيل فتح مكّة ـ أنّ النبيّ يريد أن يغزوهم، وأنّ المسلمين ألقوا القبض على هذه المرأة في الطريق، وأجبروها على تسليم الكتاب الذي كانت قد خبّأته في قرنها وشعرها، وأنّه أرسل إلى قريش ما أرسل، ليس نفاقاً، بل لحُسن صنيعهم مع أهله وعياله، أو لتأمين نفسه وعياله لو كانت الغلبة لهم، فنزلت السورة (انظر ـ على سبيل المثال ـ: القمي، ۱۹۸۸م: ۱۱/۱، و۳۶۱/۲؛ والكوفي، ۱۹۹۰م: ۴۷۹ ـ ۴۸۰؛ والطوسي، د. ت: ۵۷۵/۹ ـ ۵۷۶؛ والطبرسي، ۱۹۸۸م: ۲۹/۵ ـ ۳۰؛ والطبري، ۱۹۹۵م: ۷۴/۲۸ ـ ۷۸؛ والواحدي النيسابوري، ۱۹۶۸م: ۲۸۱ ـ ۲۸۳؛ والفخر الرازي، د. ت: ۲۹۶/۲۹ ـ ۲۹۷).

ولهذا ختمت السورة نفسها بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (الممتحنة/۱۳)، وتعبيره بالغضب يختلف عن تعبيره بالضلال؛ لأنّ الضلال يمكن أن لا يكون منطلقاً من موقع يغضب الله سبحانه، بل من موقع الاشتباه، بينما التعبير بالغضب ينطلق حتماً من موقع الفعل السيء والإصرار والمعاندة.

ثم يقول: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

ولو أردنا هنا أن نقارب الصورتين المشهديّتين بين مجتمع النبيّ وعلاقته بقومه ومجتمع إبراهيم والذين معه؛ فهذه المقاربة لو أخذنا الصورة المحمديّة التي كشفت عنها الآيات السابقة سوف تعني أنّ قوم إبراهيم فعلوا به ما يفعله قوم محمّد بالمؤمنين، وهذا يعني أنّنا نتعامل مع مشهدين متقاربين في العداوة والأذية، لا مع مشهد كفري محض. والقرآن الكريم يعزّز أنّ قوم

إبراهيم كانوا عدوانيّين أيضاً ومحاربين للدعوة ومعاندين، يشهد لذلك قصّة محاولة إحراقه والسعي لأذيّته.

ثم يقول القرآن مكمّلاً الآيات: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

إنّ هذا السياق برمّته يوضح لنا أنّ الطرف الآخر الذي تتحدّث عنه النصوص ليس هو مطلق غير المسلم، بل هو المحارب، وإلا فكيف تكون العداوة والبغضاء والتبرّي - بالمفهوم الذي يراد إثباته هنا خاصّة من قبل الفكر السلفي المعاصر - وفي الوقت عينه نمارس القسط والبرّ والإحسان لغير المسلم؟! ومن ثمّ فقصّة إبراهيم وقومه يفترض أن تكون منطقيّاً، نتيجة هذا السياق، واقعةً موقع القوم المعاندين المعادين لله ورسله، لا مطلق غير المسلم، وهذا يعزّز ما توصّلنا إليه في الوقفة السابقة من أنّ التبرّي جاء عقب التحقّق من أنّ الطرف الآخر هو عدوّ لله سبحانه. وقلق النصوص هنا هو قلق التولّي وهي تطالب بالتبرّي كي لا يقع التولّي، وهو ما يفتح على مسألة مطروحة في سياق بحث الولاء والبراء، وهي ما هي النسبة بين التولّي والتبرّي؟ هل هي النسبة بين الأمر الوجودي والعدمي أو بين الأمرين الوجوديّين؟

ولنقف قليلاً عند الاستثناء الموجود في الآية الكريمة: ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه..﴾، فالمتعارف بين المفسّرين إرجاع هذا الاستثناء - بعد اعتباره متصلاً - إلى مفهوم الأسوة الحسنة، بمعنى أنّ إبراهيم هو أسوة حسنة إلا في قوله ذلك لأبيه واستغفاره له، فليس هو لكم أسوة حسنة.

إلا أنّ هذا التفسير المتعارف بينهم لايبدو لي دقيقاً؛ وذلك لسببين:

السبب الأوّل: إنّه من الممكن أن يكون هذا الاستثناء راجعاً إلى واقع ما حدث مع إبراهيم والذين معه، بمعنى أنّ الله يخبرنا أنّهم تبرؤوا من قومهم إلا إبراهيم لم يقم بذلك، بل استغفر لوالده، ومن ثم فالأسوة تكون شاملة للمشهد كلّه، وهو ما كان من نوع ظرف استغفار إبراهيم لأبيه فإنّ عليكم التأسّي به وما لم يكن من هذا الظرف فعليكم التأسّي به أيضاً.

وهذا التفسير إذا ضممناه إلى الذي قلناه سابقاً سوف يعني أنّ التبرّي من المشركين يكون في موقع المعاداة لا مطلقاً، ومن ثمّ فحيث إنّ موقع المشركين مع المسلمين في عصر النبيّ الأكرم هو موقع المعاداة، فالمفترض تطبيق الشقّ الأوّل من التجربة الإبراهيميّة، وهو شقّ التبرّي.

كما أنّه من الممكن اعتبار الاستثناء منقطعاً، فيكون المعنى أنّ إبراهيم ومن معه تبرؤوا من المشركين، لكن ثمّة قصّة لإبراهيم مع والده هي كذا وكذا، ويبدو لي هذا الاحتمال بعيداً، خاصّة في ضوء عدم بيان التعليق على هذه القصّة في النصّ نفسه، ولو فرض هذا التفسير صحيحاً فلا يضرّنا في شيء أيضاً.

السبب الثاني: إنّ هذه الآية الكريمة تحكي قصّة إبراهيم، والمفروض أنّ النصوص التي في سورة الشعراء ومريم والتوبة ـ وفقاً لما ذكرناه فيها ـ تشرح بنفسها قصّة إبراهيم، ومن ثمّ تكون تلك الصورة التي استنتجناها سابقاً هي التي تحكم على مدلول هذه الآيات هنا وليس العكس، فهي تخبرنا واقع وملابسات البراءة، وأنّها كانت في موقع العداوة، الأمر الذي ينسجم جداً مع سياق آيات سورة الممتحنة، وبهذا لا يكون هناك معنى لاستثناء صورة استغفار إبراهيم من مفهوم الأسوة والقدوة.

لا ينتابني شكّ في أنّ السياق سيساعدني كثيراً على الخروج بالاستنتاجات التي خرجت بها حتى الآن، لكن يبقى في الآية القرآنية تعبير مهمّ جداً، وهو قوله تعالى: ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾، إذ يبدو كاشفاً عن أنّ نهاية العداوة والبغضاء هي إيمان الطرف الآخر لا غير، وليس رفع العداوة والكيد ضدّ الله ودينه، الأمر الذي يكرّس فكرة ثقافة اللاتسامح مع غير المسلم مطلقاً، حتى يؤمن بالله موحّداً، فكيف يمكن فهم هذا النصّ في هذه الحال؟

لكي أقارب هذا النصّ ضمن السياق الذي شرحناه، يلزمني أن أشبّهه بآية أخرى وردت في سياق مشابه في القرآن الكريم، وقد سبق أن تحدّثنا عنها عند الكلام عن مبدأ الحرابة والسلم في الإسلام (حبّ الله، ۲۰۱۱م: ۵۹/۱ ـ ۲۰۰)، وهي قوله تعالى في أوائل سورة التوبة: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة/۵)، فإنّ الشيء الذي نستنتجه من هذين المشهدين القرآنيين ـ وفقاً لما

طرحناه هنا وهناك ـ هو أنّ الكافر المعتدي على الدين والمحارب له يمكن أن تصل العلاقة معه إلى حدّ يكون الحكم الأوّلي هو وجوب محاربته بحيث يكون جزاء عدوانه هو إخضاعه للمسلمين وجعله تحت سلطانهم، وفي هذا السياق نستخرج النتيجة الآتية: إنّ غير المسلم يكون الأصل في العلاقة معه هو التسامح والقسط والبرّ ما لم يتورّط بالعدوان على الدعوة الإسلاميّة فإذا مارس هذا العدوان فإنّ الجزاء الذي قدّره الله تجاهه هو مبدأ العداوة والبغضاء والغلظة حتى تراجعه عن دينه، وبهذه الطريقة نجمع بين النصوص كلّها هنا، وهي طريقة افتراض أنّ الوظيفة تجاه المعتدي على الدعوة هي المواجهة ونفي المودّة حتى يؤمن بالله وحده، فليس مبدأ العداوة والبغضاء مع الآخر الديني ناتجاً عن مغايرته لنا في الانتماء، بل هو ناتج عن عدوانيّته، وهذا المبدأ يصبح هو الحاكم حتى لو تراجع عن عدوانيّته، فتظلّ علاقتنا به علاقة شدّة بالعنوان الأوّلي.

قد تقول: لكنّ هذا الفهم إذا تمّ هنا، فهو لا يتمّ في نصوص سورة براءة؛ لأنّ المفروض ـ كما توصّلنا إليه سابقاً ـ أنّ المعتدي إذا رفع يده عن العدوان فلا سبيل لنا عليه ولا سلطان، فكيف يتمّ هذا؟

والجواب: إنّ خصوصية مطلع سورة التوبة أنّها تكشف لنا هناك عن السبب في عدم إمكان الذهاب خلف التخلّي عن مبدأ الحرابة معه، وهو أنّ هذه الفئة التي تتحدّث عنها النصوص هناك نوع فئة لا ينفع معها السلم ولا العهد؛ لأنّ القرآن بنفسه يخبر عن أنّها سوف تظلّ تتآمر ولا ترقُب في مؤمن إلاً ولا ذمّة، فهذه الخصوصية الإضافيّة في ذلك المقطع القرآني هو الذي أوجب عدم الاكتفاء بمجرّد رفع العدوان؛ لأنّ هذا الرفع تخبرنا الآيات أنّه ظاهري، وأنّ الحقيقة هي استمرارهم بهذا الاعتداء مطلقاً.

هذا، وثمّة احتمال يمكنني طرحه هنا، وهو أنّ جملة: (وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء)، ليست إعلان الموقف من قبل إبراهيم والمؤمنين معه، بل هي إخبار، فيكون المعنى: إنّنا بريئون منكم ومما تعبدون من الأصنام، وأنّنا جحدنا بكم وبعبادتكم هذه، وأنّ الحالة بيننا وبينكم صارت إلى العداوة والبغضاء لا تنتهي إلا بإيمانكم، فليس معنى ذلك أنّ الموقف العملي منّا هو لزوم المعاداة لكم والبغضاء حتى تؤمنوا، بل الموقف هو البراءة منكم،

ولكنّ الحال بيننا وبينكم بلغت حدّ أن لا مجال لزوال العداوة إلا بإيمانكم؛ لأنّكم قومٌ لن تزول العداوة بيننا وبينكم إلا بالإيمان، فأنتم لا تتوقّفون عن معاداتنا وأذيّتنا، ومن ثم فيلزمنا أن نكون أعداء لكم، فكأنّ هذه الآية تخبر كما أخبرت آيات مطلع سورة التوبة من أنّ القوم لم يكونوا ليكفّوا عن المعاداة، ولهذا لا معنى لزوال حالة المعاداة إلا بإسلامهم وما لم يُسلموا سيظلّون معادين ومبغضين، وستظلّ هذه الحالة قائمة، والقرآن عندما استخدم هذا التشبيه بحالة إبراهيم ومن معه، فلأنّ حالة محمّد(ص) ومن معه في علاقتهم بالمشركين كانت على النسق نفسه، كما دلّت عليه آيات سورة التوبة، وعليه فلا تكون هذه الجملة إعلاناً سلوكيّاً، بل هي إخبار عن الحالة التي ستظلّ بين الطرفين، فتحقّق البغضاء بينهما أبداً لا يدلّ على أنّ سببها وجوب هذه البغضاء على المؤمنين مطلقاً، بل لعلّ سببها وجوبها كذلك عليهم في حال معاداة الطرف الآخر المفروض أنّه معادٍ دائماً، فانتبه وتأمّل في هذا الاحتمال.

وبتعبير آخر: إنّ الآية تعلمنا أنّ حال العداوة باقٍ حتى يؤمنوا، ولكنّها لا تقول لنا لماذا؟ فلعلّ ذلك لأجل كون الطرف الآخر سيستمرّ في عدائه ولن يخرج منه إلا لو صار مؤمناً أو لكون هذه هي الوظيفة الإيمانية مطلقاً من طرف المؤمنين ولو لم يعادهم الآخرون.

والذي نستنتجه من نصوص هذه المجموعة القرآنية أنّها تنهى عن تولّي من هو معادٍ لله ورسله والمؤمنين، ولا تأمر بالتبرّي في حدود ما هو أكثر من ذلك، وعلى أبعد تقدير فإنّها تنهى عن خصوصيّة الاستغفار للمشرك مطلقاً، وتأمر بالتبرّي لخصوص المشرك لا لمطلق غير المسلم.

٢.٢ نصوص الأمر بموالاة المؤمنين والنهي عن موالاة غيرهم

هذه المجموعة تأمر بموالاة المؤمنين بعضهم بعضاً، وتعلن الولاية فيما بينهم خاصّة، وتنهى عن موالاة غيرهم وتطالب بترك تولّيهم، وأهمّ النصوص هنا هو الآتي، وسوف أقوم أثناء عرض النصوص بالتعليق على بعضها نتيجة سياقه الخاصّ، ثم نقول بذكر تعليقات عامّة لاحقاً:

١. قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء/٨٩).

٢. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ..﴾ (المجادلة/١٤ ـ ١٧).

٣. قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ.. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (الممتحنة/١، ١٣).

لكنّ هذه الآيات قلنا سابقاً بأنّها لا تفيد سوى في النهي عنه موالاة المعادين للمسلمين فلا نعيد.

٤. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ.. إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ..﴾ (المائدة/٥١ ـ ٥٢، ٥٥ ـ ٥٨).

٥. قوله تبارك اسمه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ.. تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (المائدة/٧٨ ـ ٨١).

٦. قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال/٧٢ ـ ٧٣).

٧. قوله تبارك وتعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.. وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ (التوبة/٦٧، ٧١).

٨. قوله سبحانه: ﴿..وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الجاثية/١٦، ١٨ ـ ١٩).

٩. قوله تبارك اسمه: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً..﴾ (آل عمران/٢٨ ـ ٢٩).

١٠. قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا.. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا..﴾ (النساء/١٣٨ ـ ١٤٦).

١١. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ..﴾ (التوبة/٢٣ ـ ٢٤).

فهذه النصوص تقرّر مبدأين متوازيين: أحدهما إيجابي، وهو ثبوت الولاية بين المؤمنين، وثانيهما سلبي، وهو نفي الولاية بين المؤمنين والكافرين، وبهذا تثبت المفاصلة التامّة وأصالة تفريق القلوب. بل لقد وجدنا بعض الفقهاء من السلفيّة المعاصرين يحرّم أخذ الجنسيّة الأجنبية أو نحو ذلك، انطلاقاً من مثل هذا الفضاء القرآني؛ إذ في التابعيّة الوطنيّة بالمعنى المعاصر نوعُ موالاةٍ برأيهم.

توليفة نقديّة للاستدلال بنصوص التولّي والموالاة

لكنّ هذه النصوص يمكن التوقّف عندها، عبر توليفة من الملاحظات، أهمّها:

أوّلاً: إنّ ما يلزمنا في البداية هو تعيين معنى الولاية فيها، فما هي الولاية الثابتة بين المؤمنين أنفسهم والمرفوضة فيما بينهم وبين غيرهم؟ إنّ الذي يستفاد من مجموع هذه النصوص وغيرها هو أنّ اتباع المسلمين كلاً أو بعضاً لغير المسلمين، بحيث يكون ولاؤهم لهم يستنجدون بهم ويتبعونهم وينتصرون بهم أو يميلون لهم دون المؤمنين هو المرفوض، فبعض المنافقين أو بعض ضعيفي الإيمان من المسلمين كانوا ما يزالون تحت تأثير الظروف وتحت تأثير التفكير القبلي والعشائري، ولهذا كانوا يفتحون علاقات مع غير المسلمين مخترقين الحالة

العامّة، بهدف حماية أنفسهم أو وثوقاً بقوّة أولئك أو تودّداً لهم، فالولاية هنا إمّا بمعنى جعلهم أولياء الأمور ولهم القرار على المسلمين واتّباعهم والانضواء تحتهم والركون إليهم أو بمعنى الانتصار بهم أو غير ذلك، أمّا أنّ مفهوم الولاية هذا يعني أنّ التعامل مع مطلق غير المسلم يكون بالشدّة والغلظة وتفريق القلوب وغير ذلك فهذا ما لا علاقة له بهذه النصوص.

ثانياً: إنّ هذه النصوص برمّتها ذات مدلول سياسي واضح، وليست مرتبطة بمطلق المدلول الاجتماعي، وكلّ هذه الآيات والسور مدنيّة باستثناء سورة الجاثيّة، رغم أنّ سياق هذه الآيات يساعد على مدنيّتها، وقد ذكروا أن بعض آياتها مدنيّ (انظر ـ على سبيل المثال: الطبرسي، ١٩٨٨م: ٩/١١٨)، وهذا يعني أنّنا أمام واقع سياسي حقيقي ينبغي أخذه وفهمه في التعامل مع هذه النصوص، وعدم بترها عن سياقها التاريخي، فالولاية هنا هي نوع من التبعيّة ومدّ الجسور مع الجماعات غير المسلمة التي كانت تنكّل بالمسلمين وتهزأ بدينهم وتحاربه، ولهذا فهذه النصوص القويّة هل يخصّصها دليل الذميّة؟ أو دليل عقد الاستجارة؟ أو دليل المهادنة؟ وهل توقيع النبي اتفاقيّة الحديبيّة بعد نزول بعض هذه النصوص يعني أنّه والى الكافرين وصاروا أولياء له، وأنّ فعله هذا خصّص دليل الولاية مثلاً أو جاء دليل الولاية لينهاه عن ذلك وينسخ سلوكه؟!

إنّ علاقات السلم والتواصل مع غير المسلمين لا علاقة لها بدليل الولاية، بل دليل الولاية نوع من تكريس العقد الاجتماعي السياسي بين المؤمنين؛ ليكون في مقابل عقد اجتماعي سياسي بديل خارجهم وعلى حسابهم، فالذين يوالون الكافرين كما يظهر من بعض السياقات في هذه الآيات كانوا هم المنافقين أو ضعاف القلوب، مثل آيات سورة المائدة، والآية ١٣٨ وما بعدها من سورة النساء، وهذا يرشدنا إلى أنّ هذه الظاهرة كانت ظاهرة اختراق أمن الجماعة المسلمة وهويّتها، فكيف يراد لنا أن نغضّ الطرف عن كلّ هذا السياق اللفظي والتاريخي، لنبتر النصوص، ثم نأخذ لها معنى من معاني كلمة الولاية لنفرضه على هذه النصوص جميعاً؟!

ثالثاً: إذا كان المراد من النهي عن تولّي غير المؤمنين هو أصالة المفاصلة والغلظة وتفريق القلوب وما شابه ذلك، فإنّ الله تبارك وتعالى يوضح في سورة الممتحنة نفسها قائلاً:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ (الممتحنة/٨ ـ ٩)، فإذا كانت الولاية تقابل مفهوم البرّ والقسط والإحسان، مع أنّ هذه التعابير في دلالاتها الاجتماعية تعطي التواصل الرحيم مع الناس شئنا أم أبينا؛ لأنّ هذا هو ناتجها الاجتماعي، فهذا يعني تخصيص دليل النهي عن التولّي بالمعتدين، وهذا يؤكّد المفهوم السياسي الذي قلناه قبل قليل، فهذا التمييز في هاتين الآيتين في سورة هي الأهم هنا، يؤكّد لنا أنّ النهي عن التولّي جاء في مقابل الجماعات التي تواجه المسلمين، ليكون في تولّيها والتواصل والبرّ لها والعمل معها ما يوجب ضرراً على الجماعة السياسية والهوية الاجتماعية للمسلمين، وإلا لو كان النهي عن الولاية عامّاً لمن يقاتلنا وغيره فما معنى المقابلة في الآيتين؟! فإنّ المفروض أنّ حرمة التولّي شاملة للجميع فكيف يُعقل تركيب الآيتين في هذه الحال؟! ودعوى أنّ الآية الأولى دالّة على البرّ دون الودّ، لو سلّمت، فهي لا تنفي أنّ الآية الثانية كاشفة عن حصر النهي عن الموالاة والتولّي بالمعتدي، فتكون هي الكاشفة عن الأولى، وليس العكس.

رابعاً: ثمّة في النصوص السابقة قرائن وشواهد على عدم صحّة الاستنتاج الكلّي المدّعى هنا وذلك مثل: تعابير الآية الأولى والثالثة عشرة من سورة الممتحنة حيث استخدمت تعبير العدوّ ووصفت حال الطرف الآخر عبر سلوكه العدواني بإخراج الرسول والمسلمين وعبر مفهوم الغضب وليس مفهوم الضلال. وكذلك توصيفات آيات سورة المائدة، بل تعبير سورة المائدة بأنّ من يتولّهم فهو منهم، ليس بنحو الإلحاق الادّعائي الاعتباري، بل هو تعبير عن أنّه يلحق بهم بالمعنى السياسي، فيصبح حكمه حكمهم؛ لأنّه يتبعهم ويواليهم.

بل تعبير سورة آل عمران ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ..﴾، ونحوها غيرها، كاشف عن أنّ هذا التولّي كان بنحو من الانحياز للكافر دون المؤمن، وهذا يعني أنّ تولّي الكافر لا ينسجم عملاً مع تولّي المؤمن، فأن تترك ولاية المؤمنين وتنتمي في تحالفاتك مع ولاية الكافرين فهذه هي الفكرة المقلقة في النصوص هنا، وبهذا تصبح أنت منهم وتابعاً لهم وحكمك حكمهم بالمفهوم السياسي.

٣.٢ نصوص الشدّة ونفي المودّة، شرح ونقد

هذه المجموعة من النصوص القرآنية تتكلّم عن ضرورة الغلظة والشدّة مع غير المسلمين، وتؤكّد على رفض المودّة لهم، وأنّ هذا أمر لا يمكن القبول به مطلقاً.

ومهم هذه النصوص هو الآتي:

١. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ.. لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ..﴾ (المجادلة/٢٠ ـ ٢٢).

٢. قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (الممتحنة/١).

٣. قوله تباك وتعالى: ﴿.. إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ.. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة/٥٤ ـ ٥٧).

٤. قوله عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التوبة/٧٣، والتحريم/٩).

٥. قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة/١٢٣). وهي كسابقتها تحثّ المؤمنين هذه المرّة على أن يبدو للكافرين غلظةً وشدّة.

٦. قوله عزّ وجلّ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ..﴾ (الفتح/٢٩).

٧. قوله تبارك اسمه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ..﴾ (البقرة/١٦٥ ـ ١٦٧).

هذه النصوص استدلّ بها بوصفها صريحة في النهي عن المودّة والمحبّة والتعاطف بين المسلمين والكافرين، بل هي تضيف إلى ذلك مفهوم الشدّة والغلظة.

يلزمنا هنا التوقف بالتأمّل والتحليل في دلالات نصوص هذه المجموعة القرآنيّة:

١.٣.٢ السياق القرآني وتخصيص فضاء النصوص

إنّ النصوص الخمسة الأولى لا علاقة لها بموضوع بحثنا، وذلك أنّها برمّتها تتحدّث عن نوع خاصّ من الكافرين:

ففي الآية الأولى، جرى الحديث عن أولئك الذين حادّوا الله ورسوله، والمحادّة هي العداوة والمحاربة والمواجهة والمشاقّة، فإنّ أصل الكلمة من الحدّ وهو يعني الشدّة والمنع، فمن يحادد الله ورسوله هو الذي يتعامل بشدّة وممانعة معهما ومنع لهما، ومنه سمّي الحديد حديداً، ومنه تعبير حادّ الطبع، وأطلقت كلمة الحدود هنا بهذا المعنى أيضاً؛ لأنّ بها المنع والمواجهة (لمزيد اطّلاع، راجع: المصطفوي، ١٤١٧ق: ٢/١٧٨ ـ ١٨٠).

ولنلاحظ استخدام القرآن لهذه المفردة في سياق المواجهة والمحاربة، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ..﴾ (التوبة/٦١ ـ ٦٤).

بل إنّ سياق هذه الآية نفسها هنا مساعد كذلك، حيث قال تعالى قبلها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا..﴾ (المجادلة/١٤ ـ ٢٢). فإنّ تعبير «الأذلّين، والغلبة، والقوّة، والعزّة» يساعد على ذلك.

أمّا الآية الثانية، فهي تصف الطرف الآخر الذي تنهى عن موادّته بصفات العدوّ لله وللمؤمنين والمخرج لهم من ديارهم لمحض إيمانهم، فما علاقتها بمبدأ الكراهية والبغض المطلَقين؟!

وأمّا الآية الثالثة، فهي واضحة في سياق الجهاد والغلبة، وكون الطرف الآخر ممّن اتخذ دينكم هزواً ولعباً ونحو ذلك، وقد سبق أن تحدّثنا عن سياق هذه الآية أيضاً، وأنّه سياق سياسي جهادي، فراجع، وبهذا نكتشف أنّ مفهوم الذلّة والعزّة في الآية نفسها لا صلة له بمفهوم المودّة والمحبة والبغض والكراهيّة، بل هو مفهوم له صلة بعزّة المؤمن أمام الكافر لا بكراهية المؤمن للكافر ولا ببغضه له، فهذه المفاهيم غير متطابقة، فالمؤمن عزيز في قومه لا

بمعنى أنّه يكرههم، والمؤمن يتعامل من موقع العزّة لا بمعنى أنّه يكره أو يبغض، أو هو فظّ أو غليظ، بل بمعنى أنّه غير خاضع ولا ذليل ولا ضعيف ولا مسكين ولا مستكين ولا محتاج، وأين هذا من مفاهيم البغض والكراهية وإبرازهما؟!

ولهذا نجد المقابلة بهذا المعنى الذي قلناه واضحاً في آية قرآنية أخرى (النمل/٣٤، ٣٧).

وأمّا الآية الرابعة والخامسة، فتتحدّثان عن الفئة التي يكون المسلمون مأمورين بمجاهدتها، فالذي يجب علينا الغلظة تجاهه هو الذي نقاتله، وذلك أنّ الغلظة هنا جاءت في سياق القتال والحرب، فلا يُعقل أن يشمل هذا الحكم بدلالاته حالة الذميّة أو المهادنة أو الاستجارة أو غير ذلك، وحيث إنّنا أثبتنا في مبدأ السلم والصلح (حبّ الله، ٢٠١١م: ١/٥٩ . ٢٠٠، و /٢٨٧ . ٣٣٥)، أنّ الأصل في العلاقة هو السلم، وأنّ القتال لا يكون إلا لردّ العدوان، فهذا معناه أنّ هاتين الآيتين تطالبان بالغلظة والشدّة في حالة مواجهة المعتدي لا غير، وبتعبير آخر مبدأ الغلظة هنا مبدأ جهادي، وليس مبدأ علائقيّاً عامّاً بين الأديان، ونتيجة مجموع ما قلناه لا يمكن القول بأنّ مطلق الكافر يقاتَل ويُغلظ عليه فإذا تقيّد القتال بخصوص حال الاعتداء، ظلّت الغلظة مطلقة من حيث مطلوبيّتها!

كما أنّ الآية الأخيرة ليست ناظرة أساساً لموضوع بحثنا؛ وذلك أنّها لا تتكلّم عن الموقف النفسي والقلبي والسلوكي من الآخر الديني، بل هي تتكلّم عن أنّ بعض الناس سيتخذ آلهة من دون الله هي الأصنام أو السادات الذين يحبّونهم كحبّ الله،

وبهذا نستنتج أنّ الآيات الخمس الأولى لا علاقة لها بتكريس مبدأ الكراهية.

٢.٣.٢ ثنائيّة الرحمة والشدّة بين المؤمنين والكافرين

إنّ الآية التي تبدو باقية هنا في مجموعة النصوص هذه هي آية سورة الفتح، الظاهرة في لزوم الشدّة مع الكافرين، وقد وقعت الشدّة هنا مقابل الرحمة، وهذه الآية إمّا أن نفهمها تتحدّث عن الكافرين المحاربين والمعارضين للدعوة المواجهين لها أو مطلقاً.

فإذا فهمناها أنّها تتحدّث عن خصوص المعارضين المواجهين للدعوة لم تكن دالّةً على القاعدة العامّة هنا، بل خاصّة بحال العلاقة مع الكافرين المناوئين، وأمّا إذا فهمناها مطلقةً

فإنّه تقع المعارضة بينها وبين مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ (الممتحنة/٨ ـ ٩)، إذ كيف ينسجم الأمر بالشدّة مع شخصٍ مع الأمر ببرّه والقسط إليه والإحسان؟!

٣. النتائج

توصّلنا ـ في المستوى الأوّل ـ فيما مضى إلى أنّ الإسلام يريد إعادة إنتاج الولاء والانتماء عند الإنسان ويرفض مختلف أشكال خرق الولاء والانتماء هذا، فالولاء هو نوع من التوجّه والمتابعة والإقبال على الشيء، فيما البراء هو نوع من القطيعة والمفاصلة، وهما مفهومان يشكلان هويّة الفرد المسلم وهويّة الجماعة في الوقت عينه.

وفي المستوى الثاني لبحث البراءة لاحظنا أنّ النصوص الدينيّة تطالب بالبراءة والمواجهة الكاملة من الكافر المتمثل بالعدوّ المعاند المحارب والصادّ عن الدعوة ودين الله

الذي استنتجناه من النصوص القرآنية والحديثيّة أنّ القرآن لا يدعو لأيّ كراهية تجاه الآخر ما لم يمارس الآخر عدوانه، بل استنتجنا ـ بعد مقاربة النصوص لبعضها ـ أنّها تؤكّد مبدأ البرّ والتواصل الرحيم مع الآخر الديني ما دام غير معتدٍ بلا فرق بين كونه مشركاً أو من أهل الكتاب.

وبهذا تشكّلت الرؤية عندنا كاملة. إنّها تقوم على:

١. حفظ الهويّة ومبدأ المغايرة.

٢. حماية الجماعة وأولويّة الولاء للمؤمنين، وكلّ ناقض أو مضعِف لهذه الأولويّة فهو مرفوض، وكلّ مكمّل لها أو مواز فهو غير مرفوض.

٣. مبدأ الصلة الرحيمة مع الآخر الديني، وقاعدة التقارب والتواصل، وتحبيبه بالإسلام والمسلمين، ما دام غير معتدٍ أو محارب مقاتل.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الأزهري (٣٧٠هـ)، أبو منصور محمّد بن أحمد الهروي (٢٠٠١م)، **تهذيب اللغة**، الطبعة ١، لبنان: دار احياء التراث العربي.

ابن فارس (٣٩٥هـ)، أبو الحسين أحمد (١٩٩١م)، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق وضبط: عبدالسلام محمد هارون، الطبعة ١، بيروت: دار الجيل.

حب الله، حيدر (٢٠١١م)، **دراسات في الفقه الإسلامي المعاصر**، الطبعة ١، بيروت: مؤسّسة الفقه المعاصر.

خامنئي، علي (١٣٩٦ش)، **بيان قرآن، تفسير سوره برائت**، الطبعة ١، طهران: انقلاب اسلامي.

خامنئي، علي (١٣٩٦ش)، **بيان قرآن، تفسير سوره مجادله**، الطبعة ١، طهران: انقلاب اسلامي.

الفخر الرازي (٦٠٦هـ)، محمد بن عمر بن الحسين (د. ت)، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، الطبعة ٢، طهران: دار الكتب العلمية.

الراغب الإصفهاني (٥٠٢هـ)، أبو القاسم الحسين بن محمد (١٤٠٤ق)، **المفردات في غريب القرآن**، الطبعة ٢، طهران: دفتر نشر كتاب.

الطبرسي (ق ٦هـ)، أمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن (١٩٨٨م)، **مجمع البيان في تفسير (لعلوم) القرآن**، الطبعة ٢، بيروت: دار المعرفة.

الطبري (٣١٠هـ)، أبو جعفر محمد بن جرير (١٩٩٥م)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تقديم: خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

الطوسي (٤٦٠هـ)، محمد بن الحسن (د. ت)، **التبيان في تفسير القرآن**، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، د. ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

القحطاني، محمّد بن سعيد (١٤١٣ق)، **الولاء والبراء في الإسلام**، الطبعة ٦، المملكة العربيّة السعوديّة: دار طيبة.

القمّي (ق ٣ ـ ٤هـ)، أبو الحسن علي بن إبراهيم (١٩٨٨م)، **تفسير القمّي**، تصحيح وتعليق وتقديم: السيد طيّب الموسوي الجزائري، الطبعة ٤، قم: مؤسسة دار الكتاب.

الكوفي (٣٥٢هـ)، أبو القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات (١٩٩٠م)، **التفسير**، تحقيق: محمد الكاظم، الطبعة ١، طهران: مؤسّسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.

المصطفوي (١٤٢٦هـ)، حسن (١٤١٧ق)، **التحقيق في كلمات القرآن الكريم**، الطبعة ١، مؤسّسة الطباعة والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد.

الواحدي النيسابوري (٤٦٨ق)، أبو الحسن علي بن أحمد (١٩٦٨م)، **أسباب النزول**، القاهرة: مؤسّسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ودار الاتحاد العربي للطباعة.

آفاق الحضارة الإسلامية، پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
دوفصل‌نامهٔ علمی (مقالهٔ پژوهشی)، سال بیست‌وسوم، شمارهٔ اول، بهار و تابستان ۱۳۹۹، ۳۱۹–۳۴۴

پژوهشی قرآنی درباره محبت و بغض در روابط بین‌الادیانی

سید أبو الحسن نوّاب*

حیدر حب الله**، **أحمد رضا مفتاح*****

چکیده

برخی جریانات فکری و فقهی در جهان اسلام – به ویژه سلفیه – به اصل عدم دوستی بین ادیان گرویدند و بر این باورند که شریعت اسلامی بر این اصل، استوار است. به عقیده ی آنها در تعامل با پیروان ادیان دیگر ، اصل بر این است که نسبت به ایشان، بغض داشته و آنها را دوست نداشته باشیم. از نگاه این جریانات فکری و فقهی، این اصل یکی از مظاهر سخت گیری بر پیروان ادیان دیگر و عدم ارتباط دوستانه با آنهاست. در تحقیق پیش رو، سعی شده تا این مسأله از منظر قرآنی مورد بررسی قرار گیرد و به این نتیجه می‌رسد که آنچه در نصوص قرآن یافت می‌شود تعامل غیردوستانه و با بغض و نفرت نسبت به «دشمنان امت اسلام و انسانهاست» نه همه ی افرادی که در فکر و دین و مذهب با مسلمین اختلاف نظر دارند. علاوه بر اینکه آنچه در نصوص قرآنی مشاهده می‌شود تاکید بر حفظ هویت به وسیله ی تمایز و تفکیک با پیروان ادیان دیگر است نه بغض و نفرت نسبت به آنها.

کلیدواژه‌ها: بغض؛ تولی؛ تبری؛ دوستی؛ هویت؛ سخت‌گیری.

---

* دانشیار، دانشگاه ادیان و مذاهب، دانشکدهٔ فقه و حقوق (نویسندهٔ مسئول)، abulhassan.navvab@gmail.com

** دکتوراه، دانشگاه ادیان و مذاهب، haiderhhh@hotmail.com

*** دانشیار، دانشگاه ادیان و مذاهب، دانشکدهٔ ادیان تطبیقی (ابراهیمی)، meftah555@gmail.com

تاریخ دریافت: ۱۳۹۹/۰۱/۱۸، تاریخ پذیرش: ۱۳۹۹/۰۴/۰۲